

مليون فرنك ليظهر بعض أحياء باريز فأذنت لأنه ثبت أن بعض الأمراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تلوذد الفناء عليها أما أنا فثم أر على كثرة تجوالي راكباً وماشياً في شوارع باريز وأحيائها موضعاً تحدثك النفس أنه محتاج للإصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء في مكائده وإن مدينة باريز لتتفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي تثير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل.

تاريخ الحضارة الفرنسية

٢٣

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما بهم عن معرفة باريز وما نحن أولاء نتوخى في هذا الفصل أن نم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة إلا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسي بتصرف كثير وزيادات.

فرنسا مملكة عظمى في أوربا الغربية يحدها المحيط الأطلنطيقي وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الألب والجورا والفوسج ويفصل بينها وبين البنجيك وألمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦.٤١٨ كيلومترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليوناً أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥.٠٠٠ كيلومتر مربع والفرنسيي جميع سكان سوريا أخلط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذي قوة عقلية حقيقية واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش وإن فرنسا

لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجها ومع هذا فهي تعد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة في الأرض . . . في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والأنتيموان والكبريت ولكن عندها ما ينزمها من الحديد والفحم الحجري.

وإنك لتدهش إذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوامج ولها في تربية المواشي والحيوانات يد طولى وتجدها المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية بالفحم الحجري والحديد والمخاضيل الزراعية القابضة لتحول وقد امتاز كل إقليم بصناعة وباريز هي منكة المدن الصناعية في فرنسا لأنها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات.

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز إقليم الأردن بالجوخ وأعمال الحديد والألواح الحجرية وامتاز إقليم شامانيا ونورمانديا بالجوخ وأعمال الحياكة والنسيج وإقليم فرانك كونتية بعمل الساعات وليون وسان إتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصيني والكاشاني وفي ضواحي الكنولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق والمرسية الميزة بصابونها وإقليم البروفانس يزهره العطرة التي تستعمل في الطيب وعنى الجملة فإن صناعات فرنسا من أنفس ما تصنع صنع الأيدي في العالم ولا سيما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهريّة والبلور والأواني الصنية الدقيقة وكنها مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك أوروبا.

تقسم فرنسا من حيث أمورها الإدارية إلى ٨٧ إيالة وهذه تقسم إلى ٣٦٢ ولاية و٢٨٩٩ كورة و٣٦١٧٠ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الأول كل أربع سنين وأعضاء الثاني كل تسع سنين وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الإجزائية بيد الوزارة وهي المسؤولة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والأديان والبحرية والبرية إلى مناطق كثيرة تحالف ترتيب الإيالات وكنها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد.

ومن نظر إلى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلى له أنها هي بلاد غاليا المستقلة وهي عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ ق. م ولم تكن إذ ذاك إلا خنيطاً من العناصر والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها ففي الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سنية وفي الجنوب الغربي إييرية وفي الجنوب الشرقي ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومسحمرات إيطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس أعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم أوضاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوي ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه أحق بها.

وكانت المدن قنينة جداً في بلاد غاليا وغاية ما كان فيها ملاحية لأوقات الغارات وهي مراكز الأسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الأشراف والمخاربون ومنهم ينتخب أعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة

الشعب كانوا فدايين تقرب حالمهم من العبودية ولم يكن يمنك الأراضي ثم أصبحت منكاً
للأسرات الشريفة.

أما الحراثون فهم من توابع الأرض ويجيء بعدهم العبيد ويعدل من حال الأشراف طبقة
الدرويد وهم الكهنة والأطباء والمنجون والقضاة ولا سيما في أوسط البلاد.

ولما استقام أمير الرومانيين أقاموا زعيماً عاماً على البلاد ممعاً بالسنطة المطلقة متصرفاً
بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعني به الإمبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق

والقانون الحي والرئيس الروحي والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة

الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فأصبحت اللغة اللاتينية

الحقيقية وغدت كل أمة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم وأخذت التجارة والصناعة

ترتقي ولولا أنه كان من حق المالك أن يبيع الأرض بفلاحها وهو الحاكم المتحكم في

حياتهم ومماهم لركن الفلاحون إلى الفرار.

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعداها إلى الأرياف إلا بعد

زمن وكان من فوائد انتشارها أنها أعلنت بأن الأحرار والعبيد سواء أمام الله هذه هي

الفائدة الأخلاقية أما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين

بنظامهم الذي أخذوه عن نظام الحكومة ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبحت الكنيسة

حكومة وسط حكومة تجمي أموالاً من الناس ويغدق المؤمنون وأحياناً الإمبراطورة عليها

من المال ما تكوّنت منه ثروة طائلة وتعفى أملاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من

الحكمة مع الشعب بل كثيراً ما يحاكم الشعب نفسه في الكنية ولطالما كان الأسقف في

ابريشية خصماً للحاكم السياسي ورقياً عبيداً عميه. ولما سقطت المنكة الرومانية تجزأت

غالباً إلى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كنفة البلاد إلى الانتشار بعد الاجتياح ولم يكن منوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كساتر المنوك البرابرة ولا يقصون للحكومة وزناً ولئن يلبسون الثياب الأرجوانية ويضعون التيجان عني رؤوسهم كإمبراطور الرومان إلا أنهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة في الجباية كما أن اللغات في البلاد تعددت وكنها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت صنطة الأشراف وسنطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الأعظم من الناس بالزعامة عنده إلا لهم ومنهم يطلبون الإنصاف ولهم يدفعون الجزية والحراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والأديار إلى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الأمن في البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما في سابق الأعصار وفي البين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في ستراسبورغ ظهرت لأول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الفرنسية وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريس.

وما زالت المنوك تتوالى عندها وتختلف في المبادئ والأطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسي وزاد عدد المالكين من أبناء القرى زيادة مهينة وارتقت الصناعة والتجارة عني ما كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة والأنظمة المنوعة وارتقت الأدبيات وتحررت من قيودها القديمة وأخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية والسياسية وإصلاح القوانين الجنائية وتمييز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية أن الملك منهم من الله وحقه إلهي عني سكان الأرض بنظرية الحكم الملكي النيابي ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي.

نهت البارلمانات في مكافحتها سلطة الملوك (سنة ١٧٨٨) أفكار وكلاء الشعب فبدأت الأمة ترفع صوتها وكان الملوك يخشون ولا يرون لها حقاً في مطالبها بحق واتفق أن وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الأمة ينظرون في حل ما أصابهم فنشأت بعد حين الثورة الأولى (١٧٨٩) وأعلن لويز الرابع عشر أن الأمة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الإنسان والوطني أن مبدأ كل سلطة ينبعث من الأمة بجمهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع أن يحكم حكماً لا يكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الإلهي المزعوم وأتت الثورة على أعشار رجال الدين والإقطاع والمخترات والأحكام التي يحكمها أرباب الإقطاع وسادت بين الناس في الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من أرباب الغنى أن توسد إليه الوظائف الكناسية والحربية بدون استحقاق وحث الحرية الشخصية وحرية الضير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوي كل وطني من أكبر كبير إلى أصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته.

هذا موجز الأساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري ثم عراه قليل من التعديل بتقلب أنواع الحكومات وقيام بعض الأديعاء بالملك إلى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع ألمانيا وعندما استقرت الحال على ما تراها إلى اليوم.

أما نشأة الآداب والعنوم فنكل منها تاريخ ويقال على الجملة أن اللغة الفرنسية هي بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة إلى أن وصلت في عشرين قرناً إلى حالتها وكانت أديباتهم دينية لأول أمرها وبعضها شعري ونثري وأكثرها خرافي ولم تخصص اللغة من القيود العائقة إلا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وتاريخ العلم

ونشره فيها طويل كتاريخ الأدب ويقال على الجملة فيه أن مرسينيا كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آثينا وكنية الإسكندرية وكان بيتياس أحد أبنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن أعظم الفنكيين في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية إلا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينما كان التمدن الإسلامي بالغاً أوجه كانت العلوم منحطة كل الانحطاط في أرض فرنسا. ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا إلا بمساعي أطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر فاعتصموا باسبانيا أولاً ثم بإقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جهتها مدرسة مونبليه. وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الأرض. فمن العرب أخذ الفرنسيين فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنهم وندهبس بحضارتهم المعز المدلل القابض الباسط.

الصحافة الباريزية

نشأت الصحافة هنا في مبدأ أمرها بنشر أخبار الملوك والوزارات والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك إلى أن صارت تنم بمعظم الموضوعات التي تهم القراء وتعلمهم وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحوادث والآراء السياسية